إضاءات على الفكر الاجتماعي الإسلامي

الإمام الغزالي نموذجاً



الدكتور

حسام الدين محمود فياض

شتاء ٢٠١٧

الناشر مكتبة نحو علم اجتماع تنويري

بسم الله الرحمن الرحيم

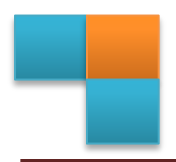
اسم الدراسة: إضاءات على الفكر الاجتماعي الإسلامي الإمام الغزالي نموذجاً

تأليف: الدكتور حسام الدين فياض

الناشر: مكتبة نحو علم اجتماع تنويري

الطبعة: الأولى

تاريخ: شتاء ٢٠١٧ م



- د. حسام الدين فياض

إضاءات على الفكر الاجتماعي الإسلامي

الإمام أبو حامد الغزالي (حجة الإسلام) نموذجاً

(٤٥٠هـ -١٠٥٨م/ ٥٠٥ هـ- ١١١١م)

- المقدمة:

يعتبر فيلسوفاً إذا أردنا أن نصنفه في صف الفلاسفة، وفقيهاً في صف الفقهاء، ومتكلماً في صف المتكلمين ومتصوفاً في صف المتصوفة. هو الإمام حجة الإسلام مجدد القرن الخامس **أبو حامد الغزالي محمد بن محمد بن محمد الطوسي المقلب بزين الدين**. ولد في مدنية طوس عام **٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م** إحدى مدن خرسان الفارسية تقع شمال شرق إيران وتسمى الآن بشهر. لقب **بالغزالي** نسبةً إلى قريته الغزالة عموماً، وإلى مهنة أبيه الذي كان يغزل الصوف ويبيعه ليكسب قوته. وتوفي الإمام الغزالي رحمه الله في طوس سنة **٥٠٥ هـ/ ١١١١م**.

يعتبر **الإمام الغزالي** في العقيدة على مذهب الأشاعرة وإن خالفهم في بعض ما ذهبوا إليه، وقد اختلفت نظرة بعضهم إليه بحسب موفقهم من الأشاعرة. درس علم الفقه وأصول الديانات والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة، كما اشتهر في حضور البديهة والقدرة على الحوار والجدل والمناظرة بين علماء عصره، حيث كان يجادل بالحجة والبرهان والمنطق.

كما يعد **الإمام الغزالي** من أغزر مفكري الإسلام مادة، ومن أطولهم نفساً في التأليف، ومن أكثرهم إنتاجاً وتنوعاً، حتى وصف بأمير الكتاب. وقيل إن مؤلفاته زادت على ثلاثمائة كتاب ما بين مخطوط ومطبوع ومفقود، أما كتبه المطبوعة فقد زادت على الأربعين كتاباً، هذا عدا المخطوطات التي لم تطبع بعد وما أكثرها، كذلك عدا الكتب المفقودة التي لم تصل إلينا، فهو لم يقتصر على فن واحد من فنون المعرفة، بل له تصانيف في شتى الفنون، فقد ألّف في **الفلسفة، وعلم الكلام، والمنطق، والتفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والأدب، والشعر، والتصوف، وعلم الاجتماع،**

وعلم الأخلاق، وعلم النفس، وخواص القرآن، وأسرار المكاشفات، والوعظ، والاعتقاد، والإرشاد، والترهيب، والترغيب، والفلك، وفي علم الشريعة، وفي علم الحقيقة، بل حتى في علوم الحرف، وأسرار الروحانيات، وخواص الأعداد، ولطائف الأسماء الإلهية وغيرها.

إن أهم ما يلفت إليه النظر بالنسبة لمؤلفات **الإمام الغزالي** غزارة الإنتاج وتنوعه، والإحالة إلى كتبه ولذلك قيل إن ما كتبه الغزالي يعرف من كتبه أكثر مما كتب عنه، ولا تقرأ كتاباً من كتب الغزالي حتى تعرف جملة من أسماء كتبه، لأنه لا يدع مناسبة لكتاب من كتبه تمر دون أن يشير فيها إلى ذلك الكتاب ويحيل عليه. **ومن أهم كتب** ما يلي:

١) **المنقذ من الضلال**: وهو كتاب لا غنى عنه لأي باحث في تتبع ودراسة تطور حياة الغزالي الفكرية من الدراسة المستفيضة إلى الشك ثم إلى اليقين،

وحدد موقفه من علم الكلام والفلسفة والفلاسفة والتصوف.

٢) **مقاصد الفلاسفة**: عرض فيه آراء الفلاسفة اليونانيين ومن تبعهم من الفلاسفة المسلمين تحليلاً وشرحاً.

٣) **تهافت الفلاسفة**: وهو رد الغزالي على أقوال الفلاسفة ونقض تعاليهم وإبطال حججهم، وإظهار ما فيها من تناقض ومخالفة للعقل.

٤) **إحياء علوم الدين**: وهو أهم الكتب وأعظمها في الأخلاق والتصوف. ألفه في أواخر حياته حيث اعتزل الناس.

٥) **إلجام العوام عن علم الكلام**: وهو دعوة إلى الاكتفاء بالأدلة المأخوذة من القرآن الكريم لمعرفة الله تعالى، وعدم الخوض في أدلة المتقدمين لأن مقدماتهم وبراهينهم تشكك ذهن العامي البسيط وتقلق قلبه بدلاً من أن تقنعه.

٦) **معيار العلم**: وهو كتاب في المنطق ويسمى معيار العلوم.

٧) **ميزان العمل**: وهو كتاب في التهذيب ورسم الطريق للعمل الصالح.

٨) **القسطاس المستقيم**: وهو كتاب في بيان ميزان العلوم وهو من أواخر كتب الغزالي.

٩) **مشكاة الأنوار**: وهو كتاب في فلسفة التصوف، ومن الكتب التي تحدثت عن أسرار الأنوار الإلهية.

١٠) **الاقتصاد في الاعتقاد**: وفيه تبرز شخصية الغزالي المتكلم.

وفي نهاية تقديمنا **للإمام الغزالي** يمكننا القول أن الأسس الفكرية التي بنى فكره عليها هي الأسس القائمة على مرجعية الوحي، والعقل، من حيث أنهما يمثلان محور الفكر والثقافة الإسلامية برمتها، فالعقلانية المسرفة في الجفاف المادي، لا تفي بالمتطلبات الروحية والوجدانية الإنسانية، وهو الجانب الذي ينبع منه التواصل الإنساني، وعدم التواصل سيظل

قائماً، ما لم يستوعب العقل الإسلامي حقيقة حجم، وتأثير المذاهب الغربية ووضعها في سياقها التاريخي الحضاري، وبنفس القدر من التوجه، فعلى العقل الغربي أن يدرك أن حضارته الحالية ما هي إلا نتاج للمثاقفة بينه وبين حضارات سبقته ومهدت له الطريق علماً وفناً، وخاصة الحضارة الإسلامية، بأفكارها التي تجعلنا نقف في ندية عند التواصل الثقافي في عصر العولمة، وندحض به أية فكرة تحاول طمس هذا الجانب المشرق من حضارتنا.

أولاً- أثر أحداث السياق الاجتماعي وتفاعلاته على فكر الإمام الغزالي:

من الطبيعي أن نتعرف بإيجاز على عصر **الإمام الغزالي**، لأن أحداث السياق الاجتماعي وتفاعلاته تلقي- دون شك - أضواء على الجوانب الفكرية والروحية التي تعنينا في هذا المجال قبل غيرها من الجوانب.

اتسم عصر **الإمام الغزالي** (النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس، وهو العصر العباسي المتأخر) من الناحية الفكرية، بازدهار المناهج الفلسفية في الإسلام، حيث ترجمت كتب الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، فاختلطت الآراء والأفكار الفلسفية بالأفكار الدينية الإسلامية الأصلية، فاتسعت دائرة الفكر وتشعبت ألوانه وطرقه ومناهجه، إذ سيطرت المدرسة المشائية الإسلامية التي تزعمها الفارابي وابن سينا، كما اكتملت في هذه الفترة معالم الطريق الصوفي، وعمقت مضامين الحياة الروحية في الإسلام.

بالمقابل ظهر العديد من الفرق والمذاهب العقائدية الدينية أو الفكرية المختلفة فكثرت معها المناظرات الفكرية والمجادلات الكلامية، وتوالت الاتهامات بالكفر والزندقة والمروق عن الدين بين الملل والطوائف المختلفة.

أما من **الناحية السياسية** فقد اتسم عصره بانحلال سياسي وعسكري وأخلاقي، حيث استولت فيه الدولة السلجوقية على الحكم في بغداد، وأصبح السلاجقة أصحاب السلطة الفعلية فيها، كما هددت الإسماعيلية والباطنية الخلافة، واستشرى خطر القرامطة، وسقطت أنطاكية وبيت المقدس بأيدي الصليبيين، وبينما كان السلاجقة ينشئون المدارس النظامية للدفاع عن المذهب السني كان العبيديون الفاطميون في مصر ينشطون في الدعوة للمذهب الشيعي، وبذلك اشتدت حدة الصراع المذهبي في الإسلام.

هذه الأوضاع المضطربة السياسية والعقائدية والفكرية أثرت على شخصية **الإمام الغزالي** فلم يجد خلالها إلاّ الرحيل

والبحث عن الحقيقة لإيجاد المنهج الصحيح ولكونه فقيهاً ومعلماً ومربياً حاول إيجاد فلسفة دينية صوفية إصلاحية يحاول بها تنشئة الجيل وإعادة التوازن للشخصية الإسلامية على وفق المبادئ التي جاء بها **القرآن والسنة النبوية**.

بمعنى آخر يمكننا القول أن أحداث السياق الاجتماعي وتفاعلاته انعكست بشكل مباشر على مجمل نتاجه الفكري مما جعله يتبنى فكرة **الإصلاح الاجتماعي**، والدليل على أنه اعتبر نفسه مجدداً دينياً، ومصلحاً اجتماعياً، لاطلاعه على ما في الواقع من علل ومشاكل، فسعى لإصلاحه وتقويمه بهدف مناهضة الفساد الاجتماعي، وإقامة مجتمع بديل عنه يُبنى على أسس فكرية وعقدية سليمة، تنشأ عنها سلوكيات صحيحة، تشمل جميع المظاهر الاجتماعية.

- وتشمل أركان العملية الإصلاحية من خلال استقراء ما ذكره الإمام الغزالي عند حديثه عن الإصلاح الاجتماعي يمكن أن نجد **المكونات الأساسية** التالية:

أ- **الجهد الإصلاحي**: هو الركن الأساسي في كل عمل إصلاحي، ويرى الغزالي شموليته للنواحي التالية:

- **التعريف بالأحكام الشرعية**: وهو تبيين تفاصيل الأحكام الشرعية، وكيفية التعامل معها، والاستدلال لها، والحكم والمقاصد المناطة بها، ولذلك، فإن العلماء باختلاف مراتبهم من مفتين ووعاظ ومعلمين هم أول من يتعلق بهم هذا النوع من الجهد الإصلاحي. لكن مع ذلك يرى الإمام الغزالي تعلقه بالعامة من الناس بحسب معارفهم الممكنة، يقول في ذلك: " **كل عامي عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره، وإلا فهو شريك في الإثم، ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالماً بالشرع، وإنما يجب التبليغ على أهل العلم** "، ثم يعطي قاعدة لذلك هي: " **أن كل من تعلم مسألة واحدة، فهو من أهل العلم بها** ".

- **استعمال وسائل التأثير**: كالوعظ والترغيب والترهيب والقصص ونحوها، والإمام الغزالي يعتبر كل ذلك من الجهد

الإصلاحي، ولكنه يشتد على القصاصين الذين اتخذوا القص في النوادي والمساجد حرفة، ويعتبره بدعة. كذلك استعمال الشدة إذا لزم الأمر.

ب- الأسس الفكرية والعقدية المكونة للمجتمع البديل:

إن كل مجتمع لابد أن يقوم على أسس فكرية وعقدية تنبثق منها سلوكياته ومواقفه الاجتماعية، وبحسب تلك الأسس يكون تصنيفه، فالمجتمع الإسلامي هو المجتمع القائم على أساس العقيدة الإسلامية المنطلقة من المصادر الشرعية، والمتغلغلة في جميع الكيان الإنساني والاجتماعي.

وقد أَصَابَ هذه العقيدة في نظر الإمام الغزالي الكثير من الانحرافات تحت تأثير الانحرافات التي تسربت للأمة نتيجة اختلاطها بالأمم الأخرى، وما نشأ في الرد عليها من جدل أبعد المجتمع عن الفهم الحقيقي لها ولمقاصدها، فأصبحت علماً يدرس أو جدلاً تعقد له المناظرات وتؤلف فيه المصنفات بدل أن تكون روحاً تقلب الفرد والمجتمع وتبعث فيهما الحياة،

ولذلك يرى الغزالي ضرورة جعل الإيمان أو العقيدة أو المعرفة منطلقاً وغاية لكل عمل إصلاحي، وإلا كان مجرد هدر للجهد لا طائل من ورائه.

ج- **الظواهر السلوكية:** وهي منبثقة من الأسس العقدية التي يبنى عليها المجتمع، فلا يكفي تطهير ظاهر المجتمع دون الولوج إلى بواطن أفراده ونزع الصفات المهلكة التي قد تسبب خراب المجتمعات، كما وصف رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** الشح، وهو مرض واحد من أمراض القلوب بأنه قد تسبب في هلاك أمم من الناس، يقول الرسول **(صلى الله عليه وسلم)**: " **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم** ".

ومع اهتمام الإمام الغزالي بالباطن تطهيراً أو تحقيقاً دعا إلى إصلاح الظاهر كثمرة طيبة للقلب السليم أو طريقا

للتحقق، أما إن كان مجرداً عن الأخلاق الباطنية فهو رياء أو غرور، ولذلك ينتقد الإمام الغزالي الكثير من الظواهر الاجتماعية التي قد تبدو إيجابية، باعتبار أصحابها لا ينطلقون من نيات سليمة مثل أرباب الأموال.

وهكذا يدخل الإمام الغزالي في صميم الظواهر الاجتماعية محللاً نفسيات الناس مبيناً منابع سلوكياتهم، فالإصلاح عنده هو البحث في الأعماق وتطهيرها وزرع الخصال الطيبة فيها. انطلاقاً من هذا فإن الإصلاح الاجتماعي يعني عند الإمام الغزالي: بذل جميع الجهود الممكنة من كل أصناف الناس، كل حسب طاقته وعلمه للقضاء على الفساد الاجتماعي ظاهره وباطنه، وإقامة مجتمع صالح قائم على عقيدة صحيحة وإيمان متين تنبثق عنه سلوكيات إيمانية طيبة كتلك السلوكيات التي كان عليها الصالحون الذين هم **النموذج المثالي للمجتمع الإسلامي**.

ثانياً- الفعل الاجتماعي (الإنساني) عند الإمام الغزالي:

من المعروف أنه لا يمكن السيطرة على الفعل الإنساني وتوجيهه إلا إذا تم التعرّف على الحاجات والدوافع والميول التي تؤثر في الفعل الإنساني، والتي يمكن تفسيرها على أساس أنها متغيرات متعددة مركبة دينامية، تتجمع وتتألف وتتغير على نحو مستمر. وعلى العموم تستلزم دراسة الفعل الإنساني والتنبؤ به معرفة الموقف الخارجي المحيط بالفرد وخصائص هذا الموقف، بالإضافة إلى معرفة التكوين العصبي والنفسي والاجتماعي لهذا الفرد هذا من جهة، ومن جهة أخرى دراسة الخبرات المختلفة التي تعرض لها الفرد في مراحل حياته ومدى التشابه بين المواقف الحالية والخبرات السابقة.

ويرتكز الفعل الإنساني على **مفهوم الدافعية**، والدافعية في الموقف الراهن **هي الحاجات والدوافع التي تحرك الفعل الإنساني**، لذا تمثل الدافعية عاملاً هاماً وحيوياً في تحديد

الفعل الإنساني، إذ **أنها عبارة عن عملية استثارة للفعل وتنشيطه وتوجيهه نحو غاية معينة من خلال الوظيفة التوجيهية للدافعية، والتي تتمثل في أن النشاط الإنساني الواعي، هو نشاط موجه نحو هدف معين**.

فإن فهم الدور الذي تلعبه الدافعية في الفعل الإنساني، وكيفية الاستفادة من هذا الدور يمكننا توجيه الفعل الإنساني لدى الفرد والتغلب على المشاكل الاجتماعية التي تعترض حياته اليومية، مما يخفف من إحساسه بالإرهاق والتعب والملل والاغتراب الذي قد ينتابه، بل تعينه على الإحساس بأهمية ما يقوم به بإرادته من أفعال اجتماعية.

وعلى العموم فإن دراستنا **للدوافع الاجتماعية** تساعدنا على أمور أهمها:

- فهم الفعل الاجتماعي للفرد والجماعة.
- توجيه الفعل الإنساني الوجهة التي نريدها.

- وضع معايير اجتماعية للفعل الاجتماعي تتضن التعاليم الدينية والقيم الأخلاقية والحرص على بنائها من خلال عملية التنشئة الاجتماعية الصحيحة.
- تخطيط الإعلام وجميع وسائله السمعية والبصرية والمكتوبة، بشكل يؤدي دوره كاملاً في التأثير المرغوب في فعل الفرد والجماعة.

ويعتبر **الإمام الغزالي** من أهم أئمة الإسلام الذين أفاضوا في تفسير الدوافع، ويتضح لنا ذلك عندما يربط الغزالي الدوافع بالميول، ولذلك فأنه عندما يتناول موضوع الدوافع يتحدث عن الميول. وتتمثل أهمية الدوافع عن الإمام الغزالي في أن **طبيعة الإنسان لا تخلو من مجموعة من الدوافع والميول، التي تعبر عن نفسها من خلال الشهوات التي تعبر عن نفسها من خلال الميول**، وفي ذلك يقول " **أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة** ". كما أن الفكر لا يعمل دون باعث من دافع أو ميل فكلما كان الميل قوياً أوجب الإرادة واستنهض القدرة.

وفي هذا السياق **يميز الإمام الغزالي بين ثلاثة أنواع من الأفعال وهي:**

١- **الفعل الطبيعي:** وهو مجرد التغيير الآلي وذلك كانخراق الماء إذا وقف الإنسان فيه بجسمه.

٢- **الفعل الضروري:** وهو التغيير الحيوي (البيولوجي) والآلي كالتنفس مثلاً، الذي يعتبر فعلاً آلياً لا إرادة أو عقل فيه، ويشرح ذلك بقوله: " **فلو قصد عين إنسان بإبرة طبق الأجفان اضطراراً و لو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر** ".

٣- **الفعل العقلي الإرادي (الاختياري):** التي تصدر بعد سابق معرفة واختيار مثل (الكتابة، النطق، والمشي).

وفي هذه الورقة المتواضعة بجهدها الغنية بأفكارها سنحاول تسليط الضوء على الفعل العقلي الإرادي عند الغزالي بهدف توضيح موقفه من الفعل الاجتماعي (الإنساني). على اعتبار هذا النوع هو من يتضمن السلوك الاجتماعي.

وهكذا يتضمن الفعل الإنساني عند **الإمام الغزالي** مستويين: **مستوى يقترب فيه من الكائنات الحية. ومستوى آخر يحقق فيه مثله العليا ويقترب فيه من المعاني الربانية والسلوك الملائكي، ويتميز الأول بتحكم الدوافع والعوامل الاندفاعية، بينما يتميز الفعل الثاني بتحكم الإرادة وسيطرة العقل.**

وعليه يعرف الإمام الغزالي **الفعل الاجتماعي (العقلي)** " **بأنه تهذيب الأخلاق والأعمال بالمعارف عن طريق الاشتغال بعمارة الظاهر والباطن** ".

يقوم **الفعل الاجتماعي** عند الغزالي وينهض على **مبدأ أخلاقي**، وينطلق من قاعدة **الخير والشر**. فالعمل الذي يجب أن يعمل أو يحسن هو الخير، أما العمل الذي يجب أن ألا يعمل أو ينبغي ألا يعمل فهو الشر، كما أن لكل من الخير والشر درجات عن الإمام الغزالي، لذلك قسم الأفعال

الاجتماعية أو الإنسانية إلى مستويات بالاستناد إلى حكم وخطاب الشرع الذي يتعلق بأفعال المكلفين، وهي كالآتي:

- **الواجب**: وهو ما يثاب فاعله ويستحق العقاب تاركه. أي افعلوه ولا تتركوه.

- **المندوب** (**المستحب**): أي إثابة فاعله وعدم عقاب تاركه.

- **المباح**: الذي ما لا يمدح على فعله و لا على تركه. يعني إن شئتم فافعلوه، وإن شئتم فاتركوه.

- **المكروه**: ما يثاب تاركه حسبةً لله على تركه ولا يستحق العقاب فاعله.

- **الحرام**: هو ما يثاب تاركه امتثالاً لأوامر ونواهي الله تعالى، ويستحق العقوبة فاعله.

فإن لم يوجد هذا الخطاب من الشارع (المشرّع)، فلا حكم. لذا يرى الإمام الغزالي أن العقل لا يحسن ولا يقبح، ولا يوجب شكر المنعم، ولا حكم للأفعال قبل ورود الشرع.

بمعنى آخر يسمى الإمام الغزالي ما يجب أن يعمل واجباً، وما يحسن أن يعمل مندوباً (مستحباً)، وما يجب أن لا يعمل حراماً وما ينبغي أن لا يعمل مكروهاً وما عدا ذلك فهو مباح.

- وفي مسألة **الحسن والقبيح** قسّم الإمام الغزالي العمل إلى: حسن، وقبيح، ومباح، وإليكم إجمال ما فصله في كتابه " **المستصفى من علم الأصول** ". حيث اطلق لفظ **الحسن والقبيح** في ثلاثة مستويات:

* **الأول**: إن الأفعال تنقسم إلى ما يوافق غرض الفاعل، وإلى ما يخالفه، فالموافق يسمى حسناً، والمخالف يسمى قبيحاً، والثالث يسمى عبثاً.

* **الثاني**: الحسن ما حسَّنه الشرع بالثناء على فاعله. ويقول الغزالي: يكون المأمور به شرعاً، ندباً كان أو إيجاباً، حسناً، والمباح لا يكون حسناً.

* **الثالث**: الحسن ما لفاعله أن يفعله، فيكون المباح حسناً مع المأمورات. والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع أو قبحه. وهنا يجزم الغزالي بأن العمل لا يكون حسناً لذاته، ولا قبيحاً لذاته.

وفي هذا السياق يحذر الغزالي من أن يوصم الفعل الإنساني بالقبح على طول الخط، وإنما يجب أن يرتكز ذلك على قاعدة أخلاقية مستمدة من أوامر ونواهي الشريعة الإسلامية، ونبه إلى أمرين أساسيين:

أ- أن الأفعال الحسنة هي التي توافق غرض الفاعل أي تحققه، ولكن يبقى الفعل الحسن دائماً هو ذلك الفعل الذي يساير قواعد الشريعة الإسلامية. بل هو الفعل الذي وعد الله سبحانه وتعالى فاعله بالثواب في الآخرة.

ب- أن بعض الأفعال قد توصم زوراً وبهتاناً بالقبح، وإن لم يكن غير ذلك لأن الإنسان:

- يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه وإن كان يوافق غرض غيره، لأن كل طبع مشغوف بنفسه.
- قد يخدعه ظنه أو وهمه أو عدم فهمه للأفعال كما يجب فيطلق القبح كسمة على بعض الأفعال دون تبصر بها.

وهنا يجب أن نشير أن الفعل الاجتماعي (الإنساني) عند الإمام الغزالي يجب أن توجهه إرادة واعية بما تعمل ومدركة لحدوده.

ويشرح الإمام الغزالي هذه المسألة ضمن كتابه " **الإحياء** " أن **النية والإرادة والقصد**، عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفة ويكتنفها أمران: علم وعمل. والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط. والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع. وذلك لأن كل عمل، أعني كل حركة وسكون اختياري لا يتم إلا بثلاثة أمور: **علم، وإرادة، وقدرة**. لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه، فلا بد وأن يعلم، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة،

ومعنى الإرادة فيقول: **معناها انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض، إما في الحال، وإما في المآل.**

ثم يوضح الإمام الغزالي الصلة ما بين **الإرادة والقدرة والعلم** فيقول: " **النية: هي الإرادة الباعثة للقدرة، المنبعثة عن المعرفة، وبيانه أن جميع أعمالك لا تصلح إلا بقدرة وإرادة وعلم** ". والعلم يهيج الإرادة والإرادة باعثة للقدرة، والقدرة خادمة للإرادة ويتضح لنا ذلك من خلال العلاقة القائمة بينهم على أساس التناوب بين المتغيرات المستقلة والتابعة:

المتغير المستقل (السبب)	المتغير التابع (النتيجة)
العلم **يهيج**	**الإرادة**
الإرادة **باعثة**	**للقدرة**
القدرة **خادمة**	**للإرادة**

ويقرر الغزالي بناءاً على ما تقدم أنه لا يكفي أن يعلم الإنسان صواب العمل ليريده وينفذه، بل لا بد من أن يقوي في نفسه كون الشيء موافقاً له، فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد أن يفعل، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه، انبعثت الإرادة، ونهضت القدرة لتنفيذ المراد.

وواضح أن الإرادة كما يراها الإمام الغزالي لا تختلف عما نراه في وقتنا المعاصر فإنك لا تجد فرقاً بين كلامه هذا وبين قول **جزل سيمون**: " والواقع أننا لأجل أن نعمل يجب أن نريد، ولأجل أن نريد يجب أن نعرف ماذا نريد، ولماذا نريده ". لذا نقول **بداية كل معرفة قلب محب**.

وهكذا يرى الإمام الغزالي أن مفهوم الإرادة هي محور الفعل الاجتماعي فلابد من تربيتها حتى تأخذ دائماً طريق الحق والحسن، وتربية الإرادة تكون بتكرار طاعة الميل المحمود، وتكرار مجاهدة الميل المذموم، ومحل ذلك كله القلب، لأنه محل

النية ومصدر الإرادة، ولذلك فإن القلب كما يقول الإمام الغزالي " **هو المطلوب تنويره بالطاعة، والمحظور تسويده بالسيئات** ".

وفي ذات السياق تعرض الإمام الغزالي لموضوع الجبر والاختيار ومدى تأثير ذلك على الإرادة باعتبارها مصدر الأفعال الإنسانية، ولا نريد أن ندخل مع الإمام في حواره الطويل والممتد عن حجة من قال بالجبر ومن قال بالاختيار، لكن الذي يعنينا رأيه الذي خلاصته **أن الإرادة الإنسانية ليست حرة حرية مطلقة، كما أنها ليست مقيدة تقييداً مطلقاً " إن فعل العبد وإن كان كسباً له، لا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه.**

ثالثاً– رؤية الإمام الغزالي لمفهوم التنشئة الاجتماعية:

يمكننا أن التنشئة الاجتماعية في ضوء الإسلام تسير وفق أحكام التشريع الإسلامي من حيث أهدافها وخططها، وغاياتها، وهي تبدأ ببناء الفرد من داخل نفسه بترسيخ العقيدة الصحيحة، وتهذيب النفس. فعن طريق التنشئة الاجتماعية الإسلامية تنمو الأخلاق وروح التعاون والتعلق بالمجتمع، كما تتكون في الفرد نواح وجدانية نحو احترام الإنسان لأخيه الإنسان بصرف النظر عن وظيفته، وجنسه ولون مما يساعد الفرد على التكيف والاندماج مع الآخرين، والعيش معهم ومخالطتهم والتفاعل معهم ومشاركتهم في نشاطاتهم الاجتماعية المختلفة، بعيدا عن الانطواء والانعزالية مصداقا لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم ".

اتسم منهج **الإمام الغزالي** في التنشئة الاجتماعية بالوسطية، ووقف بآرائه ضد العصبية الدينية والأفكار التكفيرية، حيث أرجع ابتعاد الناس عن طريق الحق والتدين، إلى طريقة الدعوة، التي تبناها أشخاص، يزكون أنفسهم بإظهار فساد غيرهم، وكانت من حكمه الشهيرة في كتاب " **إحياء علوم الدين** " (**إن انتشار الكفر في العالم يحمل أوزاره متدينون بغَّضوا الله إلى خلقه بسوء صنعهم وسوء كلامهم، ومن خلال هذه العبارة نستطيع أن نعرف أو نفهم أنه كان في زمن الإمام أفراد متعصبون لأسس الدعوة الإسلامية حتى أنهم بَغضهم الناس وبغضوا الدين لأجلهم**).

وتعتبر دراسة فكره التربوي فيما يتعلق بالتنشئة الاجتماعية هو في حقيقة الأمر تنقية لبعض الأصول الفكرية التربوية في تراثنا بما يتلاءم مع ظروف المجتمع وليس برغبة في تكرار ما كتب عنهم، وهذه سمة من سمات أي مشتغل من المشتغلين

بالعمل العلمي في أي مجال من مجالاته، ولأن الإمام الغزالي هو حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا عندما نعود إلى ما يتمتع به تراثنا (**وخاصة من الفكر الإسلامي**) من الثراء الفكري نتهم بالتخلف وحب العودة إلى الخلف، وعدم التجديد والإبداع، أم أنه غزو فكري اجتماعي نفسي، مقصود منه عدم دراسة أفكار ونظريات هؤلاء العلماء الأجلاء، لمعرفة مسبقة من أعداء تطورنا، بقدر هذه الأفكار ؟

في المقابل نلاحظ أن الغرب يتمسك جيداً بتراثه الفكري والنظري، بل ويحاول الدفاع عنه وفرضه بالقوة أو عن طريق القوى الناعمة على المجتمعات الأخرى، برغم ما يعتريه من انتقادات وعجز عن فهم نظم الحياة وأصلها، وافتقاده للنظرة الشاملة، ورغم ذلك نجد أنفسنا مرغمين على دراسة نظرياته التربوية والاجتماعية بل الأخلاقية وتطبيق مناهجه التي تتنافى بالرؤى والأهداف مع قيمنا ومبادئنا ثقافتنا الإسلامية.

– **منهج الإمام الغزالي في التنشئة الاجتماعية:** في حقيقة الأمر ينطلق الإمام الغزالي في رؤيته لعملية التنشئة الاجتماعية من مفهومه عن **الأخلاق الحسنة** ويعرفها الإمام الغزالي بأنها " **عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر و روية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً** ". إذن الخلق **هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة.** ويعرف الإمام الغزالي **الخلق** في ميزان العمل بأنه " إصلاح القوى الثلاث: قوة التفكر، قوة الشهوة وقوة الغضب. والخلق لا يكون خلقاً حسناً إلا بحسن قوى النفس الثلاث وكمالها وتحقق العدالة والانسجام بينها فمن استوت فيه هذه القوى كلها واعتدلت كان حسن الخلق مطلقاً ومن كمل عنده البعض دون البعض كان حسن الخلق نسبياً فأساس الفضيلة يعود إلى التوسط والاعتدال فهو ميزان الأخلاق لديه، إذ

يقول: " **فماذا اعلم أن الحاصل لي هو الخلق الجميل وهو الوسط المعتدل بين طرفي الإفراط والتفريط** ".

وهذا السياق يرى الإمام الغزالي أن بعض الناس حسن الخلق بالفطرة كالأنبياء والرسل عليهم السلام، لذلك فهم بالطبيعة أخلاقهم حسنة، وما دون هؤلاء يمكن أن تكون أخلاقهم حسنة بالاكتساب، أي عن طريق التخلّق بمعنى حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخُلق المطلوب. ومعنى هذا أن تغيير الخلق ممكن. واستند الإمام الغزالي في هذا الشأن على حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " حسنوا أخلاقكم " والتحسين بمعنى التغيير لو لم يكن ممكناً – في رأي الإمام الغزالي – ما أمرنا به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . و أولى علامات اكتساب المرء للخلق الحسن معرفة عيوبه كما يراها الإمام الغزالي هي: **أن يعرف المرء عيوب نفسه، لأن معرفة العيوب هي الطريق إلى الصلاح أو التغيير.**

وهكذا نجد أن إيمان الإمام الغزالي بإمكان **تغيير الأخلاق وإصلاحها** يقودنا إلى فكرة جديدة هي التربية أو التنشئة الأخلاقية والاجتماعية، وقد رسم لنا الإمام الغزالي منهجاً تربوياً واضحاً لتربية الإنسان أخلاقياً، ولم يقتصر في رسم هذا المنهج على المراحل المبكرة من حياة الإنسان وحدها. وإنما تعداها إلى كل مراحل حياته، وما سبق وتحدثنا عنه من تغيير الأخلاق وإصلاحها وتهذيبها يمكن أن نعدّه تربية أخلاقية للإنسان اليافع والراشد، الذي بإمكانه أن يسلك أكثر من سبيل لمعرفة العيوب وتقويمها، وليس هذا فحسب بل إنه وضع لكل فضيلة أخلاقية طرقها الخاصة التي تساعد على تنميتها وتعزيزها، كما بين كيفية التخلص من الرذائل كل على حدة.

إن تتبع الخطوات التي أثارها الإمام الغزالي لتحديد منهجه في التربية الأخلاقية وضبطه يدلنا عن مبلغ عنايته واهتمامه بالجانب الأخلاقي ودرايته بفعاليته في حياة الإنسان، كما يكشف بوضوح عن أصالته في هذا الجانب والمتمثلة خصوصاً بالربط بين التصوف والفعالية الأخلاقية، أو توجيه الأخلاق

لتنحو منحى صوفياً، متشحة بوشاح روحي يضفي عليها طابعاً جديداً بحيث تغدو الممارسة الأخلاقية جزءاً أولياً من الحياة الروحية للإنسان.

أما الآن فسنتناول **التنشئة الاجتماعية عند الأطفال بشكل عام**، ذلك أن هذه التنشئة هي الأساس في تكوين رجل المستقبل وترسيخ القيم الأخلاقية في نفسه كما أشرنا قبل قليل.

في هذا السياق يقدم لنا الإمام الغزالي منهجاً عملياً في تنشئة الطفل تنشئة إسلامية اجتماعية صحيحة، فبعد أن أكد أن الطفل قابل لكل نقش وصورة، نصح الوالد بأن يؤدب ابنه وينشئه على محاسن الأخلاق، وأن يحفظه من قرناء السوء، وأوصى الأب بأن لا يحبب ابنه في أسباب الرفاهية حتى لا يتعود نعيم العيش فيصعب تقويمه بعد ذلك، وعليه أن يعوده على اللباس المحتشم الوقور، وأن يمنعه من النوم نهاراً وتعويده الحركة والرياضة، وأن يمنعه من الافتخار على أقرانه بما يملكه

هو أو والده، وتعويده التواضع وطيب الحديث، وتعويده على العطاء لا الأخذ حتى ولو كان فقيراً، وأن ينهاه عن القسم صادقاً أو كاذباً تأكيداً لقول الله تعالى:{ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ** } (البقرة – الآية :٢٢٤)، وأن ينهاه عن الأعمال غير المستحسنة كالبصاق والتثاؤب لا سيما في المجالس، وأن يعوده على الإقلال من الكلام إلا لحاجة وبقدر ما تتطلبه هذه الحاجة، وأن يخوفه من السرقة وأكل الحرام، وغيرها من الأخلاق المذمومة، وأن يعوده على الصبر، وأن يأذن له باللعب بعد الدرس حتى يستريح ويتجدد ذكاؤه ونشاطه ويروح عن نفسه مشقة العلم.

كما أشار الإمام الغزالي إلى أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام وهو في هذا يتفق مع ابن مسكويه حيث طالب الأب أن يؤدبه في ذلك، وأن يعوده أخذ الطعام بيمينه والبدء باسم الله والأخذ بما يليه، وأن يقبح عنده كثرة الأكل بطريق غير مباشر كأن يذم الطفل الشره ويمدح المتأدب قليل الأكل،

كما طالب الأب بأن لا يتساهل مع ابنه إذا بلغ سن التمييز في كل ما يحتاج إليه أمر الشرع.

أما عن أسلوب الثواب والعقاب لتأديب الصبي يرى الإمام الغزالي يجب ألا يكون العقاب لكل أمر بل من الأفضل التغاضي عن بعض الأمور إذا خجل الطفل منها وتستر بإخفائها، ولا يكون العقاب علناً حتى لا يشجع الطفل على تعود الخطأ، ويجب أن يُقل من العقاب حتى لا يتعود الطفل المهانة ويهون عليه سماع اللوم والتأنيب.

١-أن يُشغل وقت فراغه حتى يبتعد الصبي عن العبث والمجون، وخير طريق لشغل هذه الأوقات تعويد الولد على القراءة، وخاصة قراءة القرآن الكريم وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار.

٢- تهذب الصبي عن طريق تعليمه الدين وقيامه بالعبادات اللازمة، ومعرفته علوم الشرع، وتخويفه من السرقة وأكل الحرام ومن الكذب والخيانة والفحش.

٣-تعويد الطفل على احترام والديه ومعلميه والصبر على الوالدين والمعلم حتى وإن آذوه مع ضرورة احترام كبار السن أياً كانت درجة قرابتهم إليه.

٤- تعويد الطفل على الحياة الخشنة والصبر على المكاره، ومراعاة التوسط والاعتدال في تهذيب أخلاق الصبية، وينصح بإبعاد الصبي عن قرناء السوء، وبعدم تعويده على التراخي والكسل أو التساهل في التعامل معه، ويصر على إبعاده عن التدليل والتنعم.

٥-الاهتمام بموضوع اللعب بالنسبة للصغار، فهو وسيلة يعبرون بها عن فطرتهم، وينصح بأن يلعب الصبي لعباً جميلاً بعد انصرافه من الكتّاب، ولا يرى الغزالي أن اللعب مجرد نشاط تلقائي يقوم به الصغار فحسب ولكن له ثلاث وظائف أساسية: فاللعب يساعد على ترويض جسم الصغير وتنمية عضلاته وتقويتها، كما أنه يساعد في إدخال السرور على قلب الصغار، وثالثاً فهو مريح للصبية من تعب الدروس في الكتّاب.

٦- عدم التمادي في عقاب الصبي، وبالإقلال من التأنيب والتشهير بمساوئ الصغار.

٧- تهذيب الفطرة وتعديل الغرائز ومراعاة الفروق بين الأفراد.

٨- كما يضيف الإمام الغزالي عدداً من النصائح في تربية الطفل تتعلق بخصائص نموه وتنشئته منها:

- ألا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة.

- يجب عليه لبس الثياب البيض دون الملونة.

- أن يمنع من النوم نهاراً فإنه يورث الكسل.

- أن يُعلّم الولد آداب الحديث والطريق والجلوس والأكل.

- أن يُعود ألا يكشف أطرافه، ولا يسرع المشي ولا يرخي يديه.

- أن يُمنع الفخر على أقرانه بشيء يملكه والده.

– إذا ضربه المعلم فلا يكثر من الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد.

وفي النهاية **نستنتج مما تقدم** أن مهمة التنشئة الاجتماعية وواجبها ووظيفتها في نظر الإمام الغزالي تنحصر في صيانة الطفل من قرناء السوء، وتشجيع الأطفال على الأخلاق الكريمة، واستخدام اللوم والعتاب والتوبيخ ولكن بحكمة، ومنع الطفل المتعلم من أن يفعل الشيء خفية، وتعليم الطالب على كيفية تعامله مع أقرانه من المتعلمين، والزهد والرفعة في الإعطاء لا الأخذ. ويتوجب كما يرى الإمام الغزالي أن يكون المتعلم صبوراً ، وعليه أن يكون مطيعاً لوالديه ومعلمه. والغاية العظمة من ذلك هي معرفة الله تعالى وهذا النهج ليس غريباً على الإمام الغزالي باعتباره قطب الصوفية الأول، وصاحب منهج مبدع فيها بل صاحب مدرسة مازالت عامرة بالتلاميذ والمريدين حتى يومنا هذا.

الخاتمة:

- د. حسام الدين فياض

يعد الغزالي بحق ظاهرة فكرية، تكاد تكون فريدة في الفكر الإسلامي، و عبقريته هي عبقرية الصدق الأخلاقي، والذي أكد على تربية الفرد في كتابه إحياء علوم الدين، لأن الفرد في نظره أساس المجتمع، وصلاح الفرد هو صلاح المجتمع، فالإمام الغزالي هو بحق أول من أقام بناءاً أخلاقياً منهجياً في الأخلاق الإسلامية منذ نشأتها وهذا يرجع بالأساس إلى أن هذا المنهج مستمد من القرآن والسنة النبوية.

كما تميز الإمام الغزالي بالجرأة والشجاعة والذكاء، فقد واجه الاتجاهات الفكرية المختلفة التي سادت في عصره بذكاء وشجاعة نادرين، وكان نقده مركزاً على نقد الفرق المتطرفة من منطلق إخلاصه للإسلام، وكان في نقده لها يتسم بالنزاهة والموضوعية .

ومن الجدير بالذكر بأن المسلمين الأوائل أدركوا بأن التنشئة الاجتماعية هي أداة الحضارة ووسيلتها في تخليد ذاتها وضمان انسيابها وتناقلها عبر الأجيال، ويكون فعل التنشئة في

الحضارة هو رسم هذا الفعل وتحديد مداه والتأثير في سلوك الفرد الإنساني حتى ينسجم مع الأنماط الاجتماعية السائدة في تحديد سلوك حضارتهم الجمعي. وما التنشئة الغربية الحديثة التي نادى بها الغرب في أوائل القرن الماضي حتى الآن إلا بعض مما نفذته التربية الإسلامية، وطبقته بكل مثالياتها كالتربية الاستقلالية، والاعتماد على النفس في التعلم، ونظام التعلم الفردي، ومراعاة الفروق الفردية، وملاحظة الميول والاستعدادات الفطرية، وتشجيع الرحلات العلمية وغيرها.

كما يأخذ البعض على المكتبة العربية الحديثة والمعاصرة قلة أعداد الكتب التي تعنى بالتنشئة والتربية كعلم متخصص له سماته الخاصة، وتلبي حاجة المربي وولي الأمر، وتواجه النظريات التربوية الحديثة في الغرب، والتي حمل معظمها معاول الهدم - عن قصد وسوء نية - لتهدم القيم والمثل التي جاء بها الإسلام، وبنى حضارة زاهرة صمدت قروناً عديدة.

وقد ساهمت الحركات المشبوهة في طرح أفكار تربوية تصل بالشباب إلى مهاوي الردى، لتسهل السيطرة على الأمة واستنزاف طاقاتها وقدراتها وخيراتها وتسخيرها لخدمة أغراضهم، إلا أنه في الآونة الأخيرة ظهرت كتب إسلامية تصدت لهذه الموجة الهدامة، واستعانت بتلك الكنوز التي يزخر بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كأتم نظريات تربوية تلبي حاجات الإنسان الجسمية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية، والانفعالية.

وأخيراً نقول أنه لا أحد يستطيع أن ينكر أن التربية الإسلامية هي الأساس المتين الذي قامت عليه حضارة المسلمين، والتي استمرت في تفوقها ثمانية قرون لا منافس لها، فقد قدس الإسلام العلم والعلماء، وسما بالعلم إلى درجة العبادة، وعني بالتربية الروحية والدينية والخلقية.